ـ ١٠ ـ

خـــــــاتمة

« قبل نهاية العـالم ستتحقق كل النبوؤات وتنتشر الأناجيـل فى كل العالم وتعود أورشليم المقدسة الى الكنيسة المسيحية » · هـذه الكلمات لم يكتبها متصوف أو نبى من العصـــور الوسطى · لقد كتبها كرستوفر كولومبوس ، المـلاح الايطالى الذى كان يعـمل فى خـــدمة اصـحاب الجلالة أكبر ملوك أسبانيا كاثوليكية بعد اكتشاف العالم الجديد · وقد حملت سفنه الشراعية أشرعية بيضاء بصلبان حمراء وهو الرمز التقليدى للصليبيين · وكان على ظهر احدى ســفنه يهودى تحول الى المسيحية ويدعى لويس دى توريز وكان يعمل مترجما للعربية ·

لقد مضى قرنان من الزمان بين سقوط عكا واكتشاف العالم الجديد ومع ذلك فالفكرة الصليبية ، وان ضعفت ، لم تمت · اذ ان العداوة بين الشرق والغرب لم تختف ، كما ان فكرة الحرب المقدسة لم تهجر تماما · الا ان الظروف غيرت فكرة الحرب المقدســة من حرب هجومية ضـــد الاسلام الى حرب للدفاع عن الدين الصحيح ضد قوى الاسلام المعادية · ومن ناحية أخرى لم يعد الاسلام تمثله فقط البلاد العربية · بل تمثله الآن الامبراطورية العثمانية العظيمة وقد كان صـاحب القســطنطينية التى سميت استنبول منذ ١٤٥٣ م أكثر خطورة من سابقيه ·

ولم يمح ســـقوط عكا ، وهو الحـــدث الذى ختم مصير المملكة اللاتينية ، كل المكاسب الاقليمية للصـــليبيين · فقد كانت هناك مملكة قبرص القوية التى حكمها ورثة ملوك بيت المقدس الصليبيين · كما كانت

هنـــاك كذلك مملكة أرمينيا المسيحية فى آســـيا الصغرى ، والتى تدين بوجودها وحضارة بلاطها للولايات الصليبية فى الشرق على الرغم من ان الصليبيين لم يؤسسوها أو يستقروا فيها · كما كانت هناك أيضـــا جـزر بحر ايجه وبعضها جـــزء من مملكة البندقية البحرية ، وبعضها الآخر حكمته الأسر الصليبية الحاكمة مع ظهور الحملة الصليبية الرابعة ، وأخيرا كانت هناك جزيرة رودس التى حكمها فرسان القديس حنا منذ بداية القرن الرابع عشر · وعندما طرد الصليبيون من الأرض اليابسـة التصقوا باطرافها على ممر بحرى فرق بين آسيا وأوربا ·

وخلال القرن الرابع عشر ، ظل الاحساس باقيا بأن حملة صليبية جديدة ستتحرك من أوربا لتوجيه ضربة قاضية ضد الاســـلام مستفيدة بحكمة من التجارب السابقة المؤلمة بأخطائها · وبهذا المنظور بدت جزر شرقى البحر المتوسط كجسور ومعابر لغزو الأرض المقدســـة · وزادت الثقة التى دعمهـــا الانتاج الأدبى عن « استرداد الأرض المقدســـة » فمنذ المجمـــع الكنسى الثانى فى ليون عام ١٢٧٤ ، عندما قـدم البابا جريجورى العاشر اقتراحات بشأن كيفية انقاذ المملكة الصليبية والخطط الكثيرة توضع فى المجالس الملكية فى أوربا ، وكانت بعض هذه الخطط مجرد خيالات وهميـــة خالصـــة تجمع بين الكتاب المقدس واللاهوت ، والتفكير المعبر عن رغبـــة آملة لا أكثر · وبعض الخطط الأخرى كانت أكثر جـــدية استمدت نتائجهـــا من التاريخ بما فيه التاريخ الصليبى الحديث ، بالاضافة الى معرفة ممتازة بالتجـــارة وأثرها واحتياجاتها وطرقها وتقييمات للقوة العسـكرية للأعداد المسلمين · ولم تكن هـــذه مجرد حجج فى يد المدافعين والقائمين بأمور الدعاية ، فقد اثرت تأثيرا مباشرا على تفكير رجال الدولة والقادة · وفى ظل العلاقات التجـــارية والسياسية ، كان استرداد الأرض المقدسة أمرا ضروريا ، وغالبا ما كانت الرغبة فى فعل هـــذا ليست أكثر من نوع من الاعتقاد الثقافى · ولكن

كثيرا ما كانت تصاحب هـــذه الرغبة الاعتقاد المخلص بأن الوســـائل العسكرية والاقتصادية ستحقق فى النهاية هدفها ٠

وفى النهاية أدت المشروعات النظرية المتعددة والاعداد العملى الى ظهـــور حملتين جديدتين يمكن اعتبارهما من الحمـــلات الصليبية ٠ الأول يقودهـــا بطرس الأول ملك قبرص ١٣٦٥ م ٠ وكانت الثانية حملة نيكوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦ م ٠ وكلاهما مميز للقرن الرابع عشر ؛ فبطرس الأول الذى حاول بمساعدة البابوية تعبئة الغرب لحملة صليبية جديدة زار البندقية وستراسبورج وباريس ولندن وبراغ وكراسكو ٠ وقد استقبل البابا والامبراطور وملوك فرنسا وانجلترا وبولندا والمجـــر الملك الشـــهم الذى زادت شـــهرته بعـــد قتـــاله المشرف للترك على ســـاحل آسيا الصغرى ٠ ولم تكن النتائج كلها مخيبـــة للآمال ٠ وكانت القوى المجتمعة غاية فى التأثير ولكن كانت روح الفروسية هى المحركة للحملة بدلا من التفكير السياسى ٠

وانطلق الأسطول الصليبى المتمركز فى قبرص الى الاسكندرية فى ٩ أكتوبر ١٣٦٥ م ، وفوجئت المدينـــة وليومين كاملين تعرضت المدينـــة للسلب الذى لم تنج منه الاحياء المسيحية ٠ وبعد أسبوع ، ومع اقتراب الجيوش الاسلامية من القاهرة ، ترك الملك والفارس وجندى المشاة المدينة المحترقة من أجل سلامة سفنهم ٠ وكانت هـــذه نهاية الحملة التى كانت منفسا للمطامع الفروسية لفرسان أوربا ٠ ولكنها كانت عملا فى القرصنة أكثر منها حملة صليبية ٠

وفى الوقت الذى كان فيه بطرس الأول ملك قبرص يحـــرق بوابات الاسكندرية ، كان الأتراك العثمانيون يهددون أوربا فى خطورة لم يسبق لها مثيل ٠ فمن قواعدهم بالقرب من ضولوريوم Dolorium وهى موقـــع انتصار الحملة الصليبية الأولى ، وصـــل الأتراك بسرعة الى شـــواطىء

البوسفور وايجه والبحر الأسود · وعند مـوت عثمان فى ١٣٢٦ م كان الأتـراك مسـيطرين فى نيقيـة ، المدينـة التى بـوركت بالمجلس المسكون الأول فى تاريخ الكنيسة · وسرعان ما أصبحت الاناضـول فى الداخـل وايـدين Aydin على ساحل البحر الأبيض المتوسط تركية · وفى النصف الثانى من القرن غزا الأتراك تراقية Thrace واستولوا عليها ، كما استولوا أيضـا على روميليا Rumelia وبلغـاريا وأجـزاء مـن مقدونيا · وكان الاسـلام هو المسيطر الآن متغلغلا فى أوربا من خـلال البلقان · ووقعت تحت التهديد المباشر كل من قبرص وروديس وجزر بحر ايجه وأرض السلافيين وحاول البابا ، بدون جدوى ، خلق تحالف مسيحى باسم حملة صليبية · وكما أن للتاريخ نكسـاته وسـخرياته أصبحت الحـرب الصليبية حربا دفاعيـة ضـد الـكافر المعتدى · وكانت النتيجة الوحيدة الملموسة لالتماسات البـابا الحملة المشـئومة التى دعا اليهـا البـابا بونيفيس التاسع Boniface IX وقادها يوحنا دوق بورجوندى · واشترك فى الحملة الفرنسيون والألمان والانجليز والتشيكيون · وقد نزلت الحملة الى الدانوب من بودا لمقـاومة الجيش التركى بقيادة بايزيد فى معركة حامية فى نيكوبوليس فى سـبتمبر ١٣٩٦ م · وانتهت المعركة بالدمار والفناء للجيش المسيحى · وفى النهاية لم تكن حربا صليبية أو جيشا مسيحيا الذى أوقف الغزوات التركية ؛ ولكن ظهور تيمورلنك المرعب مؤسس الامبراطورية المغولية الثانية والذى شل حركة الأتراك لمدة جيل بأكمله ، وأجل استيلاءهم على القسطنطينية حتى ١٤٥٣ م ·

كانت موقعة نيكوبولس آخر الحملات الكبيرة ضد الاسلام · وقد أصمت أوربا آذانهـا فى وجه هؤلاء الذين حاولوا تحريك حملة صليبية جديدة · وكان مناخ الرأى العام بالتأكيد مضادا للمحاولة · وكانت هناك أسباب عديدة لتدهور الحماس للحروب الصليبية · فأولا وقبل كل شىء كانت هناك خيبة الأمل واليأس حول فشـل الحركة · فقد كلفت الحروب

الصليبية بمجالها الواسع مئات الآلاف من البشر والثروات دون أن تحقق نتائج مستديمه · وبالاضافة الى هذا ، أصبحت الحروب الصليبية نشازا مع تطور الحياة الأوربية فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر · وكانت الحركة الصليبية قد خلقت كتعبير عن ايديولوجية مسيحية موائمة للقرن الحادى عشر · وبعد مائة سنة ، ومع موت انوسنت الثالث ، كانت أوربا أكثر مسيحية من قبل · ولكن الممالك الاقطاعية الخاصة فرضت نفسها فوق هذه القاعدة العامة من الدين والثقافة · وقد كانت السليل المباشر للممالك القومية · وفى منتصف القرن الثالث عشر ، دخلت القوتان ، اللتان تجسمت فيهما فكرة « مناصرة المسيحية » ، وهما قوة البابوية وقوة الامبراطورية أو القوة الروحية والقوة الدنيوية لأوربا المسيحية ، فى صراع جعلهما عاجزتين تماما · فقد نظرت الممالك الاقطاعية التى استقطبت ولاء الشعوب نظرة جادة الى مستقبلها المباشر · ووجدت ان هذا المستقبل لا يكمن فى عظمة ومجد المسيحية ، ولكن فى تقوية وتدعيم ممالكها القومية · وكان الوجود اللاتينى فى الشرق أمرا يدعو للفخر ، ولكن القليل قد بذل للحفاظ على استمراره حيث أن الممالك الصليبية لم تخلق قومية خاصة بها · وفى القرن الثالث عشر أصيبت هذه الممالك بالفوضى المدمرة كالحركة التى أتت بها الى الوجود ·

ولم تكن العوامل السياسية والاقتصادية الأسباب الوحيدة التى وضعت نهاية الحروب الصليبية · اذ لم يكن يقل عن هذه العوامل أهمية ، على الأقل بين الدوائر التى نصفها اليوم بالدوائر المثقفة ، ذلك العامل الذى تمثل فى النقد والمعارضة النامية ضد الصليبية كايديولوجية · فقد بدأت أصوات المعارضة فى الظهور منذ الحرب الصليبية الثانية · وقد أتت كل حملة تالية بموجة جديدة من النقد · وقد امتدت قاعدة

المعارضة للحملات الصليبية من التروبادور ، خفيفى الروح ، سليطى اللسان ، الى المفكرين السياسيين الذين أسفوا لاستغلال الحركة من أجل تحقيق المصالح البابوية (مثلا الحملة ضد فردريك الثانى) وكذلك انتقدها النساك والمتصوفة من المسيحيين ، وأهل الورع والتقوى ، الذين شكوا فى الالهام الالهى الذى ادعته الحركة ، وذلك لأن سفك الدماء يعارض التعاليم الانجيلية · وقد ظهرت فى هذه الدوائر فكرة جديدة ، وهى تعليم الاناجيل للكفار وهدايتهم · وقد ألهبت هذه الايديولوجية الجديدة بالتبشير السلمى الخيال وسرعان مانافست فكرة الحرب الصليبية ·

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان القرآن قد ترجم الى اللاتينية بواسطة رئيس دير رهبان كلونى العظيم « بطرس المبجل » وبهذا جعل القرآن معروفا للغرب فى سبيل فهم الاسلام وكقاعدة أساسية للمجادلات المضادة للاسلام · وقد داعبت البعض فكرة أنه طالما أن الاسلام لم يرفض الانبياء ولم يرفض عيسى المسيح ، فانه يكفى الاشارة الى أخطاء محمد حتى يتم ادخال المسلمين فى حظيرة المسيحية · وكانت الارساليات المبعوثة الى المغول فى منتصف القرن الثالث عشر ارسانيات دينية أساسا هدفها تحويل هذه القوة الجديدة الى المسيحية · وكان ريموند لول عند بداية القرن الثالث عشر أكثر رسل فكرة التبشير بلاغة ، وتحت تأثيره قرر مجمع فيينا عام ١٣١١ م تأسيس ست مدارس للغات الشرقية لتدريب ناشرى الدعوة والمبشرين ووصل الدومنيكان والفرنسيسكان الى مناطق من العالم لا توجد على الخريطة يعظون ويناقشون ويعمدون ويؤسسون جماعات محلية صغيرة · وعلى الرغم من أن بعض مآثرهم يمكن تصنيفها على أنها أخاذة ، الا أن ارسالياتهم لم تصبح أبدا حركة جماهيرية · ومع ذلك فقد قوض وجودهم فكرة

الصليبية ، التى أوجدت القاعدة النظرية للمعارضة أو الرفض ٠

وعلى الرغـــم من العراقيل فقد استمرت ايديولوجية الحـــروب الصليبية ، ولكنها مع الزمن حددت لها أهدفا جديدة ، وبالتالى وضعت وسائل جديدة للعمـل ٠ وقد حدث التغيير الرئيسى عند نهـــاية القرن الرابع عشر ٠ وأصـبح رئيسيا بعد منتصف القرن الخامس عشر عندما ارتبطت فكرة الحروب الصـليبية بحركة الاستكشـــاف العظيمة ٠ ومن الصعب معرفة درجـــة الاخلاص فى هـــذا المثال الجديد ٠ اذ يبدو أن حركة الاستكشاف استمدت وحيها من مصادر مختلفة ، ولقيت قبولا لدى مستويات متنوعة من الناس ٠

ولقد بدأت حركة الاكتشافات العظيمة فى بداية القرن الخامس عشر بالمكتشفين البرتغـــال الذين وصلوا الى جزر الاطلنطى فى الغـــرب ، وداروا حول الشاطى الغربى لأفريقيا فى الجنوب وكان Infante Enriques البرتغـــالى الروح المحركة لتلك المقاصـــد الخطيرة التى غيرت مصير الانسان فى أقل من مائة عام ٠ فقد كانت الاكتشافات البرتغالية للساحل الأفريقى امتدادا لحرب الاسترداد ، وتحويلا للحرب المقدسة ــ التى هى الآن فى آخر مراحلها فى شبه الجزيرة الايبيرية ــ الى الأراضى المجاورة للاسلام والوثنية ٠ وربما يكون بمثابة خطأ فى قراءة التاريخ اذا حددنا أهدافا تبشيرية خاصة بهذه الاستكشافات أو حتى ان نفترض ان التحول الى المسيحية ــ كان عاملا أساسيا فيها ٠ ومع ذلك فليس هناك شك فى أن القادة القباطنة والمكتشفين والتجار قـد اعتقدوا ان هناك هدفا أسمى لمشروعاتهم عن مجـــرد البحث عن Eldorado ٠ فقد ارتبط الجانب الروحى للاســتكشافات بالاعتقاد فى مسئولية الرجـل الأبيض الخاصـة بنشر الانجيل فى كل العالم المسكون ٠ وكان رســـل هذه الأيام الأخيرة مسيحيين متعمقين فى ايمانهم ، ولهذا فقد رأوا أن هداية الكفار ، وتعميد

الوثنيين جـزء لا يتجزأ من مهمتهم · ومن مميزات هذا الشعور أنه بعـد اكتشاف العالم الجديد وقع كولومبس باسم كرستوفيرنز ، حامل أنبـاء المسيح السارة الى العالم الجديد · وهذا الجانب التبشيرى واضح خلال كل فترة الاكتشافات الكبرى، فقد كان كرستوفر كولومبس وفاسكو دى جاما ومؤسس الامبراطورية الكبير البوكريك يشعرون جميعا به ؛ بل واعتبروه جزءا من مهمتهم ·

وقد قامت بعثة كولومبس وتوقعاته جزئيا على اعتقادات خاطئـة عن حجم الأرض ، وعلى فكرة أنه بالابحار تجاه الغرب يصل الانسـان مباشرة الى الهند ، وبناء على هذه الفروض نشـأت فكرة الهجوم على الاسـلام من بابه الخلفى ، أى من الشرق · وقد أدت اسـطورة مملكة القديس يوحنـا ، التى حددت بالتبادل فى الشرق وفى أفريقيا ، وكذلك الأوصاف الخيالية لثرواته وقوته العسكرية الى افتراض أن تحالفا شرقيا سيسهل الهجوم على الاسلام من جبهتين ·

وعندما اتضح الخطأ بدأ التعبير عن فكرة الصليبية فى ألفاظ اقتصادية بمعنى ان الاتصـال المباشر بجزر التوابل والهند سيجعل أوربا مستقلة عن مصر تجـاريا · وفى نفس الوقت تقوض موارد مصر الاقتصـادية الرئيسية ، وهو الدخل الوارد اليها من الضرائب المفروضة على التجارة الدولية ، التى كانت تنتهى بطريقها للآسيوى الأفريقى فى دلتا النيل · ولم تنجح أوربا مطلقـا فى تحقيق هـذا البرنامج ، ولكن حققه الأتـراك العثمانيون بعد فتحهم لمصر (١٥١٧) ، وتحويلهم للطـرق التجـارية الى عاصمتهم الجـديدة استنبول · وبينما دمـر هـذا مصـر دفع بأوربا الى جهود كشفية جديدة من أجـل كسر الاحتكار التركى للتجـارة مع الشرق الأقصى · ومع ذلك فالسيادة على التجارة مع آسيا واكتشـاف

الذهب فى العالم الجديد ، كل هذا كان فى خدمة رؤيا الصليبيين الموتى ، فعند الابحـــار غربا وتوسيع المســـافات بين العالم المسيحى والأرض المقدسة دون كولومبوس فى دفتر حسابات سفينته : « أقترح على جلالتكم أن كل الربح الذى سأحصل عليه من مشروعى يجب أن يستخدم للاسترداد بيت المقدس » ٠